توأم القرية

يجلس على كرسيه الخشبي مرتديًا بدلته الرصاصية اللون، يضع على كتفه فوطة برتقالية اللون. وبجانبه دلو من البلاستيك بداخله فرشاة صغيرة. وقد رسم الزمان على وجهه خطوط وتجاعيد، يلبس على رأسه طاقيته الشبيكة البيضاء اللون. يرقب بعينيه تلك الحمامات التي تتلالأ جدرانها، وتلمع أرضيتها، وتفوح منها رائحة العطر.

اتخذ لنفسه من تلك الحمامات المتواجدة داخل محطة القطار عملًا له. فهو يعمل على نظافتها نهارًا، ويتخذها مسكنًا له في المساء. منذ أن فر هاربًا من قريته على جريمة قتل لم يرتكبها، بل كان الشاهد فيها _ جريمة قتل صديق عمره الوحيد_. ورغم أن القضاء قد أثبت براءته، لم يعترف أهل القتيل بحكمها. وعقدوا محكمتهم الخاصة، وأُصدر الحكم على صابر بالقتل.

كان صابـر وجابـر صديقين ربط حب حميـم بينهما منذ الصغر. لا ينفصـلا ولا يتفرقا إلا عند النوم، سـاعتها يعدان سـاعات نومهما حتى يتقابـلا مع شروق الشـمس؛ ليمضيـا يومًا جديدًا بـين حقليهما. ما بين الحرث والحصاد حتى أطلق عليهم أهل القرية بتوأم القرية.

نهـض صابـر من على الكرسـى واتجـه ناحية الحمام، وبيـده الدلو؛ ليملأه بالماء؛ ليعود بعدها ليبدأ عمله.

وبينـما هو على هـذا الحال انزلقـت قدماه، فاختـل توازنه، فيتمايل محـاولًا الإمسـاك بمقبـض الباب. فـإذا به يقـع عـلى الأرض، ينتابه ألم شديد. يعرف بعدها أن قدمه اليمنى قد كُسرت. دخل صابر المستشفى محملًا على كرسـيه الخشبي؛ ليرقد على السرير عاجزًا عن الحركة. يتأوه من شـدة الألم، يعاني من الوحدة والغربة التي عاشـها منذ أن هرب من بلدتـه في ليلة حالكة الظلام، يجرى بـين الزراعات، يتخبط طريقه قافزًا عبر الترع والمصارف ما بين الحقول غير مصدق لما يحدث.

ترك زوجته في القرية تعاني من ظلم أهل القرية. ومن دحروج الذى بدأ يراودها، ويرسـل إليها الهدايا والوعود. وعندما يأس دحروج منها اسـتدار إلى عدلي يحثه على الأخذ بثـأر أخيه جابر. وأن يبدأ البحث عن صابـر في كل مـكان. وأخذ دحروج يعبيء الصـدور ضد صابر وأخذا يبحثا عنه في كل مكان دون تعب أو ملل من حارة إلى أخرى ومن زقاق

إلى زقاق ومن قرية إلى أخرى. حتى يتخلص منه إلى الأبد، ويتزوج من زوجته التي أخذت على نفسها عهدًا بأن تنتظر عودة زوجها، وارتدت ثياب الحداد، وجلست أمام المدرسة تبتاع الحلوى لتلاميذ المدرسة؛ حتى تقتات ما يعينها على الحياة وسط نظرات العطف والشفقة من أهل القرية الذين لا يزالون غير مصدقين لما حدث؛ لإدراكهم بروابط الصداقة والمحبة والأخوة التي كانت تربط بين صابر وجابر منذ الصغر. فرُبَّ أخ لم تلده أمك.

وبعدما يأس كلًا من دحروج وعدلي في العثور على صابر. قررا العودة إلى القرية واتجها ناحية محطة السكة الحديدية، وركبا القطار.

وفجأة يتوقف القطار عن الحركة على غير عادته داخل محطة خورشيد. دقائق معدودة ويتحرك القطار، وتبدأ سرعته تزداد وتزداد وسط دهشة الركاب. وبدأ الخوف يسيطر عليهم وبدأت التساؤلات تدور، ونهض عدلي مسرعًا إلى دورة المياة يعاني من آلام شديدة في بطنه.

لاحظ الركاب أن القطار أخذ يغير من مساره مسرعًا متجهًا إلى خط التخزين داخل محطة القطار بمدينة كفر الدوار.

وما هي إلا ثوان قليلة يصطدم بعدها القطار بالحاجز الخرساني عند نهاية خط التخزين أمام المزلقان المغلق بكل بقوة، حيث يحتشد

حولـه المـارة في انتظار مـرور القطار كعادتـه. وارتطم القطـار بالحاجز ليجتثـه من الأرض، ليزحف أمام القطار الذي اتجه إلى ميدان الشـهداء داخل السوق الكبير. أخذ كل ما في طريقه، حتى استقر في النهاية داخل إحـدى المطاعـم عـلى ناصية الميـدان. ليعلـو بعدها الـصراخ والعويل، ويـسرع أهـالى كفـر الـدوار في ملحمـة إنسـانية ناحيـة الميـدان. الكل يسـاعد بما يستطيع عمله. فمنهم من يسـعف المصابين ومنهم من شمر عن سـاعده؛ ليتبرع بالدم. ومنهم من مزق ملابسـه؛ ليضمد بها جراح المصابين. وأخذ عدلي يبحث عن دحروج وسـط حطام عربات القطار ووسط القتلى، ثم اتجه ناحية المستشفى يبحث عنه بين المصابين. فوجده في الرمق الأخير يهلوس قائلًا:

سامحني يا صابر.. سامحنى يا عدلي.. سامحني يا جابر..

لقد أعماني الشـيطان في لحظة ضعـف مني، وجعلني أفعل ما فعلت وأقتل جابر. ثوانٍ قليلة ولفظ أنفاسـه الأخيرة وسط دهشة عدلي الذي أخذ العرق يتصبب من على جبينه من هول المفاجأة.

وبينـما هـو عـلى هذا الحال سـمع عـدلي صوت إحـدى الممرضات وهـي تهمـس لزميلاتها وعلامـات الحزن عـلى وجهها: لقد مـات صابر الصعيـدي. أخـذ الفضـول طريقـه إلى عـدلي وتحركت قدماه يتحسـس الخبر. واتجه ناحية السرير ورفع الغطاء من على وجهه، وتوقفت يداه عن

الحركـة، وعاد بذاكرته لعذابـات الماضي، وانفجر باكيًـا ينوح توأم أخيه الذي عاش طريدًا غريبًا على جريمة لم يرتكبها، هاربًا من تقاليد بالية.

يرقـد عـلى السرير وانكشـفت الغشـاوة مـن على قلبـه، وأخذت العبرات تمهد طريقها من عينيه لتتساقط على الأرض..

بعدهـا حـاول عدلي أن يجمع قـواه، وأخذ يجهـز الأوراق اللازمة لخروج جثتي صابر ودحروج من المستشفى.

وتـراص أهل القرية على جانبي الطريق في حالة ترقب وخشـوع، وأنظارهـم تتجـه ناحية الكوبري الخشـبي الممدود عـلى الترعة. وما إن اقتربت سيارة الإسعاف فإذا بزوجة صابر تشق الجموع التي احتشدت حول السيارة ناعية زوجها. ترجو من عدلي وأهل القرية أن تلبي وصية زوجهـا، وأن يدفن بجوار توأمه. هنا علـت الآهات لحظات معدودة؛ ليسود المكان من بعدها هدوء وخشوع للحظات.

وبعين دامعة ينظر إليها عدلي وهو يقول: سـامحيني وليسـامحني الله على غشـاوتي طول الأعوام التي مضت، وظلمي لكِ ولصابر ومطاردتي له على جريمة هو بريءٌ منها.. وليدفن صابر بجوار توأمه وفاءً مني لهما.

فامتزجـت دمـوع الحزن بدموع الوفاء بأعين أهـل القرية، وتعلوا الآهات مودعين ذلك الرجل العجوز.